



هل يعيد التاريخ نفسه؟ سؤال يتكرر وتخالف الإجابة بين النفي والاثبات، والحقيقة أن الحوادث تتشابه ولكنها لا تتكرر بالصورة نفسها وبخدماتها ونتائجها. أوضاعنا اليوم سواء كان الاحتلال الصهيوني للأراضي المقدسة أو الاحتلال الباطني المجوسي لجزء كبير من بلاد الشام. هذه الأوضاع فيها شبه كبير بالأوضاع التي كانت في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجريين، فالفرنجة (الصلبيون) احتلوا سواحل الشام وبيت المقدس، والمسجد الأقصى، والubiدين (الفاطميين) سيطروا على مصر وتمددوا إلى بلاد الشام واليمن. فما هي مقدمات المقاومة لهذا الغزو وهذا الاحتلال ، وما هي النتائج الطيبة التي كان من اثارها اندحار الفريقيين: القائم من بعيد للاحتلال وإشعالها حربا مقدسة ضد المسلمين والداخل المنافق من الباطنيين. كانت البداية من العلماء، ومن خلال المسجد، وكان أول المتصدرين في الشام لاجتياح الفرنجة هو الفقيه الشافعي علي بن طاهر السلمي(500 - 421هـ) الذي اخذ من جامع دمشق مركزا لتدريسه وبث آرائه، ومن هذا الجامع أسس قاعدة للمقاومة عمل فيها تلazمه في سلسلة متواصلة حتى وفـ نور الدين محمود على دمشق واتخذها عاصمة له. كان الفرنجة على أبواب أنطاكية عندما بدأ السلمي ينـاشد المسلمين الوقوف صفا واحدا متـحدا، وـمنـذـكـرا مما عندـهم من القـوىـ والمـوارـدـ البـشـرـيـةـ لـبـدـهـ الجـهـادـ الدـفـاعـيـ عـنـ الـمـسـلـمـيـنـ وـأـرـاضـيـ الـمـسـلـمـيـنـ.

ويكتب الإمام ابن عساكر إلى السلطان نور الدين محمود:

أصبحت تملك من مصر إلى حلب ولست تعذر في ترك الجهاد وقد

من النجاسات والأشواك والصلب فطهر المسجد الأقصى وحوزته

كانت رؤية السلمي لأهداف الحملة الصليبية واضحة، فهي حرب دينية وليس جمـوعـ جـاءـتـ لـلـسـلـبـ وـالـنـهـبـ كـأـنـهـ لـيـسـ لـهـ

هدف آخر، كما يحاول البعض اليوم تفسيرها بأنها حروب اقتصادية جاءوا بلاد الشام لما فيها من الخيرات، والسلمي يقول هذه حروب شفاء لتصورهم الحادة وكرد على الفتوحات الإسلامية لبلاد الروم والأندلس.

بعد هذا التأسيس للجهاد والتنظير له والدعوة إليه كانت الخطوة العملية هي إنشاء المدارس السنوية، ففي الشام تولى ذلك السلطان نور الدين محمود، وفي مصر كانت البداية من الإسكندرية، وقد تم ذلك على يد علماء قصدها من المغرب مثل أبي بكر الطربوشي، وفي المشرق مثل أبي طاهر السلفي، وأسسوا فيها مدارس كان لها أثر كبير في مشروع الإحياء السنوي وحركة الجهاد ضد الصليبيين، وفي القاهرة بدأ صلاح الدين إصلاحاته وحتى قبل القضاء النهائي على الفاطميين، وذلك بتأسيس عدد من المدارس على المذاهب الأربعة، بني أولها للمذهب الشافعي، وفي سنة 566هـ أنشأ مدرسة للمالكية بجوار جامع عمرو بن العاص، وأسس ابن أخيه تقى الدين عمر مدرسة أخرى للشافعية، وساهم وزير صلاح الدين عبد الرحيم البيساني العسقلاني (القاضي الفاضل) بمدرسة من أغنى هذه المدارس، وهذه المدارس شبيهة بالمدارس التي أسسها نور الدين محمود في الشام على غرار المدارس النظامية التي أنشأها وزير السلاجقة نظام الملك.

كان صلاح الدين وزير القاضي الفاضل على علم بالعدو الداخلي الذي يتآمر مع العدو الخارجي ، وكانا على علم أن من أسباب النصر معرفة العدو على حقيقته بلا تزييف ولا غفلة ، وإن رسائل القاضي الفاضل عن صلاح الدين إلى السلطان نور الدين محمود وإلى الخليفة العباسى في بغداد تدل على الوعي الكامل لخطر الباطينيين وأنهم أعداء كما الصليبيين ، والأمر الخطير هو تعاون الطرفين على أهل السنة ، ولذلك فإن الخطوة الأولى هي تطهير الأرض من أرجاس العدو الداخلي والإنتهاء من نفاقه ودسائسه وجاءت الخطوة الأخيرة حين قضى صلاح الدين على المؤامرات من حاشية القصر وجند الفاطميين ودارت المعارك في شوارع القاهرة بين الفرقة العسكرية التي مع صلاح الدين وبين المتآمرين من جند الملك العبيدي (العااضد) انتصر فيها صلاح الدين وتمهدت الأمور لإنتهاء هذه الدولة التي حكمت مصر أكثر من مئتي سنة . جاء في رسالة من القاضي الفاضل إلى نور الدين محمود: " ولم يزل ( صلاح الدين ) يتosc من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعهم أنهم أعداء وإن تعدت بهم الأيام ، وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون إليه المكاتب المتوترة والمراسلات المتقططة إلى الفرنج خذلهم الله، التي يوسعون لهم فيها المطامع، ويزينون لهم الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها ربة الإسلام خلع المرتد الخصوم" (1) ومن رسالة إلى الخليفة العباسى يبين فيها القاضي الفاضل أن القضاء على الفاطميين هو سلسلة لتوحيد أهل السنة والقضاء على الانقسام في العالم الإسلامي، والتخلص من الإلحاد والفحوج يقول" والذي أجراه الله على يد الملوك (2) والمملاليك التي دوختها وسنت الضلال التي نسخها وعقود الإلحاد التي فسخها وحجج الزندقة التي ضحدها فللله عليه المئنة فيه إذ أهله لشرف مشهده وما فعله إلا لوجهه، ويد الله كانت عون يده" (3) ومن رسالة أخرى إلى الخليفة العباسى يوضح فيها أوضاع مصر في عهد الفاطمية وكيف كان حال أهل السنة "إإن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقومة، وأحكام الشريعة وإن كانت مسممة فإنها متحماة، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة وتعطيل للفرائض، وكفر سُمِّي بغير اسمه وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه، وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر، ونصابر الضررين المنافق والكافر" (4)

إذا لا بد من إزالة الخطر الباطنى أولاً وفي عام 576هـ أنهى صلاح الدين الدولة الفاطمية في مصر وعادت البلاد لأهل السنة وتوحدت الشام ومصر" وتواتت الفتوح غرباً وشاماً، وصارت البلاد بل الدنبـا حـرما حـراما، فأضـحـى الدين واحدـاً بعد ما كان أديـاناـ والـبـدـعـةـ خـاـشـعـةـ وـالـمـذـلـةـ فـيـ شـيـعـ الضـلـالـ شـائـعـةـ" (5) وفي عام 583هـ كانت موقعة حطين التي انتصر فيها المسلمون نصراً عظيماً على الصليبيين وبعدها تم استرجاع القدس واسترجاع الأقصى وبقية المدن الساحلية، وأصبح واضحاً أن طريق الإسلام هو طريق أهل السنة، وكل طريق غيره لا يوصل إلا إلى الخلاف وتبديد القوى والطاقات.

1. هادية الدجاني: القاضي الفاضل ودوره في دولة صلاح الدين / 147

2. يقصد صلاح الدين. وكانت هذه طريقة في المخاطبات.

3. القاضي الفاضل ودوره في دولة صلاح الدين / 151

4. المصدر السابق / 153

5. المصدر السابق / 152

المصادر: